التموضع الروسى فى الشرق الاوسط .. الآفاق والأبعاد

(أوراق الشرق الأوسط، يناير 2025)

د. نـورهان الشيـخ

أدت الأزمـة الأوكرانيـة إلـى تـداعيات هيكليـة فـى توجهـات السياسـة الخارجيـة الروسـية وخريطة شراكاتها وتحالفاتها. وقد عكست عقيدة السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية الصادرة فى 31 مارس 2023 ذلك بوضوح حيث تضمنت تعديلات جوهرية فى الأولويات الروسية للحركة خارجياً. وتقدم العالم الاسلامى واحتل المرتبة الخامسة، ضمن عشر دوائر للسياسة الروسية، بعد الجوار القريب فى الفضاء السوفيتى السابق والقطب الشمالى والقارة الأوراسية وآسيا الباسفيك. واعتبرت العقيدة الشرق الأوسط جزءاً من العالم الاسلامى، وتحكم السياسة الروسية تجاهه ذات التوجهات والمنطلقات، والتى يمكن إيجازها فى ستة أساسية، هى:

- أن دول المنطقة من الدول الصديقة، تمييزا لها عن الدول غير الصديقة التى تنتهج سياسات غير ودية إزاء روسيا، وأصدرت الأخيرة قائمة بها تضم 53 دولة غير صديقة، فى مقدمتها الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبى وشركائهما حول العالم من الدول التى انضمت لنظام العقوبات التى دعت لها واشنطن ضد موسكو.
- حرص روسيا على تعزيز التعاون الشامل والشراكة مع دول المنطقة، وإدماجها فى الشراكة الأوراسية الكبرى، على اساس مبدأ الكل رابح والمنفعة المتبادلة، إنطلاقا من كون دول المنطقة من المراكز الواعدة للتنمية العالمية وتمتلك مقومات وآفاق هامة للنمو.
- إن دول المنطقة شركاء موثوقين لروسيا في ضمان الأمن والاستقرار وكذلك في حل المشاكل الاقتصادية على المستويين العالمي والإقليمي.
- احترام أنظمة دول المنطقة الاجتماعية والسياسية وقيمها، والحوار والتفاهم بين الأديان والثقافات، وتوحيد الجهود لحماية القيم الروحية والأخلاقية التقليدية، ومكافحة الإسلاموفوبيا.
- إنشاء بنية إقليمية شاملة ومستدامة للأمن والتعاون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، على أساس الجمع بين قدرات جميع الدول والتحالفات بين دول المنطقة، بما في ذلك جامعة الدول العربية ومجلس التعاون الخليجي. واعتبار تنفيذ مبادرة مفهوم الأمن الجماعي الروسي لمنطقة الخليج خطوة مهمة نحو التطبيع المستدام والشامل للوضع في الشرق الأوسط.

- المساعدة في حل وتجاوز عواقب الصراعات المسلحة في الشرق الأوسط وتسوية الخلافات وتطبيع العلاقات بين دول المنطقة (إيران والدول العربية، سوريا وجيرانها، الدول العربية وإسرائيل)، بما في ذلك في إطار الجهود الرامية إلى التوصل إلى حل شامل ودائم للقضية الفلسطينية.[1]

فى ضوء التوجهات العامة السابقة، والتطورات التى اجتاحت المنطقة وعصفت بالكثير من استقرارها السياسى والاقتصادى، إلى جانب مواقف دولها من الأزمة الأوكرانية، أعادت روسيا تموضعها فى المنطقة دون المساس بالثوابت التى حكمت شراكاتها ومواقفها من القضايا الشرق أوسطية المختلفة. ويمكن بلورة أبرز ملامح وأبعاد ذلك على النحو التالى.

1. استمرار الإرتكاز على سوريا:

تعتبر سوريا الركيزة الأساسية للنفوذ الروسى والحليف الأبرز لموسكو فى الشرق الأوسط، ومنذ بدء الأزمة السورية وظفت موسكو مدى واسع من الأدوات الدبلوماسية والسياسية والعسكرية على النحو الذى أصبحت معه الفاعل الأساسى فى الملف السورى. فمن ناحية قادت روسيا مواجهة دبلوماسية داخل الأمم المتحدة، وقامت بالاعتراض على قرارات إدانة استخدام العنف من قبل الحكومة السورية فى مجلس الأمن والجمعية العامة ومجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة. وعلى الصعيد العملياتى، مثل التدخل العسكرى الروسى فى 30 سبتمبر 2015 "قبلة الحياة" لسوريا التى كادت أن تتحول لأفغانستان الشرق الأوسط بعد أن أصبحت حاضنة لعشرات التنظيمات الارهابية المتناحرة مع الدولة السورية، ومع بعضها البعض، وبؤرة تشع الارهاب وعدم الاستقرار فى الشرق الأوسط والعالم على النمط الأفغانى. وأعلنت وزارة الدفاع الروسية فى 6 ديسمبر 2017 حصاد جهد ضخم من التخطيط والعمل الميدانى والضربات الجوية الدقيقة قامت به موسكو تضمن أكثر من 92 ألف ضربة جوية في سوريا، تم خلالها القضاء على ما يقرب من 86 ألف إرهابى، وتدمير حوالى 121 ألف هدفا وموقعا للإرهابيين تشمل مركز قيادة ومعسكرات تدريب وغيرها، إلى جانب القضاء على عدد كبير من قيادات تنظيم داعش.[2]

مثل ذلك دفعة قوية للمفاوضات التى قادتها موسكو لتسوية الأزمة السورية وتجاوز الخلافات بين الأطراف المختلفة المتصارعة على أساس الحفاظ على وحدة الأراضى السورية. وقد كان لإطلاق مسار "أستانا" فى يناير 2017 دور حيوى فى استعادة الاستقرار فى سوريا وتثبيت مناطق خفض التصعيد والنجاحات التى تمت ضد الارهاب.[3] وفى 11 و12 نوفمبر 2024 عُقدت الجولة 22 من مفاوضات أستانا شارك فيها وفود من الدول الضامنة، روسيا وتركيا وإيران، وممثلون عن الحكومة والمعارضة السورية، ومندوبون عن الأمم المتحدة والأردن

ولبنان والعراق. وإضافة إلى قضايا حل النزاع في الشرق الأوسط والوضع في سوريا تم بحث إطلاق الرهائن والبحث عن المفقودين والوضع الإنساني، وحشد جهود المجتمع الدولي لتسهيل عملية السلام، وإعادة إعمار سوريا وتهيئة الظروف لعودة اللاجئين السوريين إلى وطنهم.

كما نجحت جهود روسيا فى إعادة تطبيع وضع سوريا الإقليمى والدولى وعودتها إلى مقعدها فى جامعة الدول العربية بالتنسيق مع شركائها فى المنطقة، وتبذل موسكو جهد واضح للمصالحة السورية التركية وإنهاء كافة اشكال الوجود الأجنبى غير الشرعى فى سوريا من ناحية، وإعادة دمج الأكراد ضمن الدولة السورية من ناحية أخرى. وقامت فى هذا الاطار بتطوير صيغة رباعية تضم وزراء خارجية سوريا وإيران وتركيا وروسيا اجتمعت لأول مرة في مايو 2023.

وعقب تفجر الأزمة السورية من جديد في 27 نوفمبر 2024 مع شن جبهة النصرة (هيئة تحرير الشام) هجوما واسع النطاق في شمال غربي سوريا، فى أكبر تصعيد عسكري في سوريا منذ عام 2020، أكدت موسكو دعمها القوى لإجراءات القيادة السورية، لمواجهة الجماعات الإرهابية، واتهمت أوكرانيا بتقديم دعم عسكري للعناصر الارهابية مؤكدة إن هجوم هذه العناصر لم يكن ممكناً دون دعم وتحريض من الخارج، وأن الاستخبارات الأوكرانية ضالعة في تنظيم الأعمال العدائية، وتزويد المقاتلين بأسلحة وطائرات مسيرة إلى جانب وجود مدربين عسكريين أوكرانيين يدربون مقاتلي هيئة تحرير الشام على العمليات القتالية.

وواصلت القوات الجوية الروسية ضرباتها على مواقع المسلحين دعماً للجيش السورى، كما قامت روسيا بإقالة المسؤول عن قواتها في سوريا الجنرال سيرجي كيسيل، وعينت ألكسندر تشايكو، الذي يوصف في روسيا بقائد معركة "تحرير حلب" عام 2017، لإعادة ضبط الأوضاع وقيادة العمليات.

2. استمرار الدعم الروسى لحل الدولتين وفتور فى العلاقات الروسية الإسرائيلية:

تميزت المواقف الروسية من القضية الفلسطينية بمجموعة من الثوابت منذ الحقبة السوفيتية واستمرت حتى تاريخه باختلاف المعطيات والتفاصيل. أبرزها التأييد المطلق للحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وضرورة التزام إسرائيل بتنفيذ كافة الاتفاقات الموقعة بما في ذلك حل الدولتين وحق الفلسطينيين فى اقامة دولتهم المستقلة، ووضع القدس الشرقية كعاصمة لها، ورفض سياسة الاستيطان والعنف باعتبارها لا تخدم العملية السلمية. كذلك، دعم المصالحة الفلسطينية، ومحاولة التوفيق فيما بين الفصائل الفلسطينية المختلفة حيث تحتفظ روسيا بعلاقات جيدة وقنوات اتصال مفتوحة مع كافة القوى الفلسطينية ومن بينها حركة حماس التى تصنفها واشنطن وبروكسل منظمة ارهابية، وسبق وأن استضافت موسكو عدة لقاءات للفصائل

الفلسطينية، منها تلك فى يناير 2017 وفبراير 2019، وأخرها فى فبراير 2024 بدعوة رسمية روسية وبحضور وفدي حركة حماس والجهاد الإسلامي. إلا إنها لم تستطع تجاوز الانقسام الفلسطيني المستمر منذ عام 2006، واتخذ مرارا طابع الصدام المسلح، نتيجة الصراع على السلطة وإختلاف الفصائل على التفاوض مع إسرائيل، ورغم الحرب فى غزة وما تفرضه من تهديدات. هذا إلى جانب دعم روسيا للجهود العربية بشأن التسوية السلمية للصراع العربى الإسرائيلى، فقد أيدت موسكو المبادرات العربية للتسوية السلمية، والتى أكدت جميعها على الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية، وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيرة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة، وإحترام سيادة الدول العربية.

فى هذا السياق، جاء الموقف الروسى من عملية طوفان الأقصى، فقد استقبلت موسكو وفد حركة "حماس" فى 26 أكتوبر 2023، وأكدت تمسكها بـ"حق الدولتين"، مشيرة إلى تقاعس الولايات المتحدة على مدى 75 عاما في الوصول للحل العادل والمنطقي، كما استقبلت موسكو الرئيس الفلسطينى محمود عباس للتنسيق والتشاور فى هذا الخصوص. بل وشبه الرئيس بوتين "الحصار على غزة بالحصار النازى على لينينجراد". وتقدمت روسيا بعدة مشروعات لوقف إطلاق النار فى غزة بمجلس الأمن اصطدمت جميعا بالفيتو الأمريكى، مؤكدة أهمية التسوية السلمية الشاملة والعاجلة. واستخدمت روسيا حق النقض "الفيتو" في مجلس الأمن لتعطيل مشاريع القرارات التي تقدمت بها واشنطن وتمنح إسرائيل الحق فى الدفاع عن نفسها، وتنكر حق الفلسطينيين فى ذلك، كما رفضت القرارات التي تصنف "حماس" منظمة إرهابية، أو اتهامها باستهداف المدنيين، أو تلك التي تدعو إلى استمرار الحرب وترفض وقف إطلاق النار. وعلى صعيد أخر، طلبت روسيا السماح لها بإنشاء مستشفى ميدانى فى غزة كمساعدة انسانية للفلسطينيين، إلا إن سلطات الاحتلال الإسرائيلى رفضت الطلب الروسى.

ويماثل الدور الروسي فى أزمة غزة نظيره السوفيتى إلى حد كبير، والذى لم يكن دور قائد أو مهيمن فى الملف الفلسطينى مقارنة بنظيره الأمريكى، ورغم كون موسكو "الراعى الثانى" لعملية السلام خلفاً للاتحاد السوفيتى باعتبارها دولة الاستمرار له، وشهد عام 2001 بدايه آلية رباعى الوسطاء الدوليين، "الرباعية"، التى تضم روسيا والولايات المتحدة والاتحاد الأوربى والأمم المتحدة، والتى صدر بها قرار مجلس الأمن رقم 1397 فى مارس 2002، ليقنن دور روسيا فى عملية التسوية السلمية، ولتعود موسكو فاعل ذو وضعية دولية وقانونية فى هذا الإطار، إلا إنه من الناحية الفعلية لم يعد للرباعية دور يذكر فى عملية التسوية، وكانت روسيا قد أبدت تحفظها على تعيين تونى بلير، رئيس الوزراء البريطانى الأسبق، موفداً للجنة الرباعية إلى الشرق الأوسط

فى يونيو 2007، ومنذ ذلك الحين خيم الجمود على الرباعية ولم يبذل بلير الجهد المأمول والواجب لتفعيلها.

على صعيد أخر، أدى الموقف الروسى من أزمة غزة إلى مزيد من التراجع فى علاقات موسكو باسرائيل حيث رأت الأخيرة أنه يمثل دعم صريح لحركة حماس في مواجهتها، وقامت باستدعاء السفير الروسى لديها للاحتجاج معتبرة أن دعوة موسكو لحماس تبعث برسالة تضفى "الشرعية على الارهاب ضد اسرائيل"، كما أعلنت موافقتها على استقبال الرئيس الأوكراني فلاديمير زيلينسكي بعد أن سبق ورفضت استقباله بحجة "التوقيت غير مناسب"، ولكن لم تستقبله حتى تاريخه. الأمر الذى زاد من الفتور فى العلاقات الروسية الإسرائيلية والذى بدأ مع موقف تل أبيب من الأزمة الأوكرانية والذى جاء مؤيداً للموقف الغربى فى مواجهة روسيا وقدمت مساعدات ودعما إنسانيا ومعدات دفاعية وخوذات وسترات واقية وغيرها لكييف. يضاف إلى هذا اتهامات نتنياهو لروسيا بدعم حزب الله وأن قواته عثرت على أسلحة روسية "حديثة" خلال تفتيشها قواعد لحزب الله في جنوب لبنان.

وأثار ضرب طائرات إسرائيلية أحد مستودعات الذخيرة بالقرب من مدينة جبلة بريف اللاذقية بالقرب من قاعدة حميميم الجوية الروسية في سوريا فى أكتوبر 2024 إنزعاج موسكو وأعلنت وزارة الدفاع الروسية أن مثل هذه الأعمال غير مقبولة، لأنها قد أن تهدد حياة العسكريين الروس، ونفت المزاعم الإسرائيلية حول نقل الأسلحة الإيرانية لـ"حزب الله" في لبنان عبر قاعدة حميميم، مؤكدة أن هذه مجرد "شائعات"، وأن جميع الشحنات في القاعدة تخضع للتفتيش.

ومن المعروف أن تعاون وثيق جمع روسيا وحزب الله فى سوريا وكان هناك تنسيق عملياتى واستخباراتى واسع النطاق بين الجانبين، ونددت روسيا بالضربات الإسرائيلية التي استهدفت مقرات حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت، واعتبرتها "انتهاك صارخ للقانون الدولي." كما نددت باغتيال اسرائيل الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله واعتبرت أن أن إسرائيل ارتكبت "جريمة قتل سياسية" بحقه وأنه عمل سيؤدي لعواقب وخيمة على لبنان والشرق الأوسط ويزعزع الاستقرار بشكل خطير، ويدفع إلى موجة جديدة من العنف، محملة إسرائيل المسؤولية الكاملة عن هذا الوضع، ودعت إسرائيل لوقف أعمالها العسكرية فورا. وفى هذا السياق رحبت روسيا بوقف إطلاق النار بين إسرائيل ولبنان فى 27 نوفمبر 2024، مع تشكيكها في إمكان تطبيقه فعليا، وأبدت موسكو استعدادها لدعم تنفيذ الاتفاق ومنع أي تصعيد إضافي.

3. تحول فى الموقف من السودان باتجاه الدعم المعلن للبرهان:

يعتبر التواجد العسكرى المستقر فى منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندى حلم يراود موسكو منذ الحقبة السوفيتية، وسعى الاتحاد السوفيتى للحصول على موطئ قدم فى منطقة البحر الأحمر، وكانت هناك محاولات مع الصومال ثم أثيوبيا، إلا إنها لم تكلل بالنجاح. ومن المعروف أنه لا يوجد تشكيل بحرى روسى فى المنطقة ويوجد فقط سفينتان فى المحيط الهندى وعدد من الغواصات الروسية التى لا يمكن كشفها وتتبع مسارها بالأقمار الصناعية. وخلال زيارته لروسيا فى نوفمبر 2017، بحث الرئيس السودانى السابق عمر البشير مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ووزير الدفاع سيرجي شويجو إمكانية إنشاء قاعدة عسكرية روسية على البحر الأحمر في السودان، فى محاولة منه لتكرار النموذج السورى والاستقواء بروسيا فى مواجهة محاولات الإطاحة به. وعقب رحيله أكدت السلطات السودانية الجديدة تمسك الخرطوم بالاتفاقيات السياسية والاقتصادية والعسكرية الموقعة مع روسيا، وأعلن رئيس الوزراء الروسي، ميخائيل ميشوستين، فى 6 نوفمبر 2020، عن اتفاق روسى سودانى حول إنشاء مركز لوجيستي على شواطئ البحر الأحمر السودانية، وتطوير وتحديث بنيته التحتية بهدف صيانة السفن الحربية الروسية وتموينها واستراحة أفراد طواقمها. ويقع المركز فى منطقة "ترينكيتات" شمال بورسودان بقاعدة فلامينجو، ويستوعب أربع سفن بما فيها تلك المزودة بتجهيزات نووية، وعدد من الأفراد لا يتجاوز 300 شخص، ويسرى الاتفاق لمدة 25 سنة قابلة للتجديد تلقائيا لـ 10 سنوات متتالية.[4]

الأمر الذى عظم من الأهمية الاستراتيجية للسودان بالنسبة لروسيا، وحرص الأخيرة على استقرارها السياسى. فالمركز اللوجيستى خطوة أو نواة يمكن تطويرها إلى قاعدة عسكرية بحرية متكاملة، على غرار ما حدث فى طرطوس السورية، لاسيما وأن الشاطئ فى المنطقة كبير ويسمح بالتوسع، ومن المعروف أن الفارق بين المركز اللوجيستى والقاعدة هو فى عدد السفن التى يمكن استضافتها وحجم الأطقم العاملة بها حيث تتسع القاعدة عادة لتشمل ورش صيانة ومراكز اتصالات ونظم دفاع جوى مما يضاعف من عدد الأفراد العاملين بها إلى ما يقرب من 1200 شخص، ويتوقف هذا التوسع على رغبة البلدين فى دفع التعاون بينهما وتطويره مستقبلاً. كما إن وجود المركز سيساعد روسيا على توسيع حضورها البحرى فى منطقة القرن الأفريقى وأفريقيا بصفة عامة، ويؤكد ثبات وقوة التوجه الروسى نحو أفريقيا. ويتيح المركز آفاق رحبة لتنمية التعاون العسكرى الروسى الأفريقى ويفتح الأسواق الأفريقية للسلاح الروسى حيث ستكون خدمات ما بعد البيع التى سيقدمها المركز أقرب مما يشجع الدول الأفريقية على شراء الأسلحة والمنظومات الروسية وخاصة أن هناك قبول بالفعل من جانب الدول الأفريقية على السلاح الروسى، وتمثل صادرات الأسلحة الروسية إلى إفريقيا جنوب الصحراء حوالى 7% من إجمالى

الصادرات الروسية من الأسلحة ومن بين شركاء روسيا فى هذا الاطار كل من إثيوبيا، وأنجولا، وجمهورية إفريقيا الوسطى، ونيجيريا، وغانا، ومالي، وأوغندا، وجنوب أفريقيا. على صعيد أخر، يسهم المركز اللوجيستى الروسى فى تعزيز الحضور الاستراتيجى الروسى فى المنطقة العربية والشرق الأوسط وذلك فى ضوء مثلث القواعد البحرية الروسية فى سوريا والسودان وتلك المأمولة فى ليبيا، وما لذلك من تداعيات استراتيجية هامة.

فى هذا الاطار، مثل إندلاع الحرب الأهلية فى السودان ضربة موجعة للمصالح الروسية، وأعلنت روسيا دعمها لوقف إطلاق النار فى السودان دون تحرك مباشر فى هذا الصدد، وتردد وجود عناصر من فاجنر تقوم بتدريب قوات الدعم السريع والتعاون معها فى استخراج الذهب. إلا إنه فى مايو 2024 قام المبعوث الروسي للشرق الأوسط وإفريقيا، ميخائيل بوجدانوف، بزيارة بورتسودان وأعلن لأول مرة أن "مجلس السيادة السوداني هو السلطة الشرعية التي تمثل الشعب السوداني." تلى ذلك زيارة نائب رئيس مجلس السيادة السوداني مالك عقار لروسيا حيث حصل على تعهدات من موسكو بإمدادات عسكرية ضخمة مقابل الحصول على ضمانات مؤكدة لإقامة القاعدة الروسية على سواحل البحر الأحمر وامتيازات في مجالي التعدين والزراعة.

وفى 19 نوفمبر 2024 أحبطت روسيا عبر استخدام حق النقض "الفيتو" قرارا قدمته بريطانيا وسيراليون في مجلس الأمن الدولي بشأن السودان، يتيح للندن فرصة التدخل في شؤون السودان ومواصلة الهندسة السياسية والاجتماعية فيه. وبعث رئيس مجلس السيادة السوداني عبد الفتاح البرهان رسالة شكر وتقدير للرئيس بوتين، مشيدا بالموقف الروسي في مجلس الأمن ومواقف بوتين ودعمه اللامحدود للسودان، ومشيراً إلى التنسيق المسبق مع موسكو، وأن الموقف الروسى من شأنه أن يسهم في تقوية وتمتين العلاقات بين البلدين والدفع بها لآفاق أرحب.

4. تعزيز الحضور الروسى فى ليبيا:

لروسيا دورًا هامًا فى ليبيا واستطاعت إحداث توازن فعال فى التطورات والتسوية الليبية عبر دعمها الجيش الليبيى بقيادة المشير حفتر الذى استقبلته موسكو أكثر من مرة، مع محاولة الاحتفاظ بقنوات مفتوحة مع الأطراف الليبية المختلفة وخاصة سيف الاسلام القذافى، ودعم المفاوضات ووحدة مؤسسات الدولة الليبية وسلامة أراضيها.

ويشهد الوجود الروسي في ليبيا، الذى برز منذ عام 2019 على شكل وحدات شبه عسكرية تابعة لمجموعة فاجنر، تزايد ملحوظ منذ مطلع العام الجارى. ففى اعقاب لقاء يونس بك يفكوروف، نائب وزير الدفاع الروسي، والفريق أول أندريه أفريانوف، رئيس مجموعة فاجنر

الجديد، والمشير خليفة حفتر، قامت مجموعة من السفن الروسية بتسليم آلاف الأطنان من الأسلحة والمعدات العسكرية في ميناء طبرق، فى أبريل 2024، كما نشرت روسيا 1800 مقاتل في شرق ليبيا، معظمهم من الفيلق الإفريقي الروسي، إضافة إلى نحو 2000 مقاتل على الأرض في ليبيا.

وتعتبر ليبيا جسراً حيوياً بين عمليات روسيا في البحر المتوسط في سوريا وبين قوات الفيلق الأفريقى المنتشرة في بوركينا فاسو وإفريقيا الوسطى ومالي والنيجر والسودان، وقامت بنقل مقاتلين من ليبيا إلى النيجر فى أبريل 2024، ولقوات الفيلق الأفريقى وجود فى القواعد الجوية الليبية بالقرب من سرت والجفرة وبراك الشاطئ، ومنها يتم نقل الإمدادات بين حلفائها في السودان ومناطق أخرى في إفريقيا جنوب الصحراء.

5. الإنعاطف باتجاه الخليج (السعودية والإمارات):

تحظى الشراكة مع السعودية والامارات باهتمام خاص فى أولويات السياسة الروسية كشفت عنه زيارة الرئيس بوتين للدولتين فى ديسمبر 2023، والتى كانت الأولى لدول عربية منذ إندلاع الأزمة الأوكرانية. وقد أدت الأخيرة إلى تطور غير مسبوق فى العلاقات الروسية مع الدوليتن نتيجة موقفهما من الأزمة، فرغم شراكتيهما الاستراتيجية مع الولايات المتحدة إلتزام البلدان الحياد ورفضا المشاركة فى نظام العقوبات، ولم تستجيب الرياض للضغوط الأمريكية لوقف اتفاقات "أوبك +" مع روسيا بزيادة انتاج النفط رغم الإلحاح الأمريكى وزيارة الرئيس جو بايدن للمملكة لهذا الغرض، إنطلاقاً من مصالحها فى استمرار الاتفاق وكونه يدعم استقرار سوق النفط والاقتصاد السعودى. كما زار الشيخ محمد بن زايد روسيا مرتين بعد إندلاع الأزمة الأوكرانية وشارك فى قمة بريكس بقازان الروسية، ولعبت الرياض وأبوظبى دور الوسيط فى تبادل الأسرى بين روسيا وأوكرانيا، وبين موسكو والولايات المتحدة، واستطاعت أن تقدم نفسها كوسيط فاعل وهام فى الأزمة الأمر الذى ثمنته روسيا وقدرته عالياً.

وتعتبر روسيا ضبط أسعار النفط حجر زاوية فى ضمان أمنها القومى، بأبعاده الاقتصادية، والشريان الرئيسى للاقتصاد الروسى، وتوفير الموارد اللازمة لعمليتها العسكرية فى أوكرانيا، ويأتى من ثم على قمة الأولويات الروسية، ويفرض ذلك التنسيق مع دول المنطقة، خاصة المملكة العربية السعودية، باعتبارها أكبر مصدر للنفط فى العالم فى إطار مجموعة "أوبك +". إلى جانب كون البلدين فضاء اقتصادى وسوق هام للحبوب والسلع والتكنولوجيا الروسية، وتصدرت الامارات قائمة الشركاء التجاريين العرب لروسيا منذ عام 2023، بإجمالى

تجاوز 11 مليار دولار، وزاد التبادل التجارى بين موسكو والرياض على نحو ملحوظ ليصل إلى 3.3 مليار دولار، ولذا حرصت موسكو ودعمت قبول عضويتيهما فى مجموعة بريكس.

6. تعضيد استقرار الشراكات التقليدية وتطويرها:

فى مواجهة الضغوط الأمريكية على دول المنطقة، كسائر دول الجنوب، للإنخراط فى العقوبات الغربية على روسيا ووقف التعاون معها، حرصت موسكو على الحفاظ على استقرار شراكاتها التقليدية لاسيما مع مصر وتركيا. وتعتبر روسيا أن مصر شريك استراتيجى هام فى المنطقة، وتتفهم موقف مصر من الأزمة الأوكرانية وتقدر عدم مشاركتها فى نظام العقوبات، واستمرارها فى تطوير التعاون العسكرى والتقنى بين البلدين، وتقدم موسكو تعاونها مع مصر خاصة محطة الضبعة النووية والمنطقة الصناعية بمحور قناة السويس كنموذج للدول الأفريقية والترويج لمشروعات مماثلة معها.

كما ساهم عدم انضمام تركيا لنظام العقوبات الغربية على تحقيق نقلات نوعية فى التعاون بين موسكو وأنقرة على النحو الذى أصبحت معه تركيا مركز Hub للغاز والحبوب الروسية، وأكبر مستورد للحبوب الروسية، وبلغت وارداتها من القمح الروسي رقم قياسي تجاوز 9 ملايين طن عام 2023، وتقوم تركيا بإعادة تصديره إلى أوروبا فى صورته الخام أو مصنوعات منه. من ناحية أخرى، ساعد الموقف التركى على بلورة تفاهمات أوسع نطاقاً بين موسكو وأنقرة حول سوريا وناجورنى كاراباخ وغيرها من القضايا الإقليمية.

إلا إن التطورات الأخيرة فى سوريا تمثل تحدياً هاماً من شأنه الإضرار بالعلاقات بين موسكو وأنقرة والتفاهمات القائمة بينهما كدول ضامنة، نظراً لأن الجانب التركي لم يف بالالتزامات التي تعهد بها لروسيا وإيران بموجب اتفاقيات أستانا وسوتشي، بما في ذلك القضاء على "الجماعات الإرهابية" وضمان إمكانية الوصول إلى الخطين الدوليين والاستراتيجيين إم 4 وإم 5، إلا إن عمق المصالح بين البلدين ستمكنهم من تجاوز الأزمة الحالية لاسيما وأنهما يديرا العلاقات بينهما على أساس الملفات المنفصلة وتجنب خلط الأوراق ببعضها على النحو الذى يمكنهم من الاختلاف فى قضايا والتعاون فى أخرى.

7. قفزة فى الشراكة الاستراتيجية مع إيران:

أدت العقوبات الغربية الضخمة المفروضة على روسيا وإيران إلى وضع البلدين فى خندق واحد، وجعلت كل منهما متنفس حيوى وشريك طبيعى للأخر اقتصادياً وعسكرياً، يدعم هذا الرصيد الهام من التفاهمات السياسية بينهما حول مدى واسع من القضايا الدولية والإقليمية

الحيوية لكليهما والتى تمس المصالح والأمن القومى للبلدين، وفى مقدمتها سوريا، وأفغانستان، وناجورنى كاراباخ. فقد تم تفعيل ممر "شمال – جنوب" الذى يربط روسيا والهند عبر إيران، ويعتبر شريان تجارى هام لاسيما فى ضوء النمو غير المسبوق للتبادل التجارى بين روسيا والهند وكون الأخيرة الباب الخلفى لتصدير النفط الروسى للأسواق العالمية. كما وصل التعاون العسكرى بين البلدين إلى مستويات نوعية تؤشر لشراكة أعمق اعتبرها البعض "شراكة دفاعية كاملة" وإن لم تصل بعد لمستوى التحالف المعلن، ولعل أحد أهم أبعاد ذلك إمداد روسيا بالطائرات المسيرة الإيرانية، وصفقات الأسلحة الروسية إلى إيران، وتسليمها أسلحة غربية كانت قد استولت روسيا عليها أثناء المعارك فى أوكرانيا، وما تردد من تزويد روسيا بصواريخ باليستية إيرانية من طراز "فاتح 360" قصيرة المدى، مقابل مقاتلات "سو 35" الروسية لإيران.

فضلاً عن التعاون الأمنى والاستخباراتى بين البلدين لاسيما فى المجال السيبرانى. ومن ذلك قيام موسكو بتقديم معلومات استخباراتية لطهران قبل بدء الهجوم الإسرائيلي عليها بساعات فى 26 أكتوبر 2024 حيث أبلغت إيران بوجود تحركات عسكرية أمريكية وإسرائيلية، بهدف الحد من التصعيد في المنطقة، كما لعبت روسيا دور هام فى دفع إيران إلى ضبط النفس فى المواجهة مع اسرائيل.

وقد انتهى البلدان من صياغة اتفاقية "شراكة شاملة" بينهما تشمل الدفاع المشترك، وصفها الطرفان بأنها تضع أساساً لتعاون وثيق بينهما لعقود مقبلة، وتم البدأ فى صياغتها مطلع عام 2022، وكان من المقرر توقيعها خلال قمة مجموعة بريكس في قازان أكتوبر الماضى، ولكن تم تأجيل ذلك ليتم خلال زيارة مقبلة مقررة للرئيس الإيرانى، مسعود بزشكيان، لموسكو. وسيتم كذلك إقرار مجموعة واسعة من الاتفاقات المشتركة أبرزها اتفاقاً لتسريع صفقات التنقيب عن الغاز وإنتاجه وبيعه بقيمة 40 مليار دولار، ويجعل الاتفاق لروسيا، إلى جانب الصين، الامتياز الأول في حقول الغاز الرئيسية في إيران. وفى 11 نوفمبر 2024 أعلن البنك المركزي الإيراني ربط الشبكتين المصرفيتين الروسية "مير" والإيرانية "شتاب"، في إطار تعزيز الروابط المالية والتجارية. وسيسهم ذلك فى تعزيز التعاون الاقتصادي والتخلص من الدولار في التجارة بين البلدين، فضلا عن تسهيل العلاقات الاقتصادية والسياحة بينهما.

لقد كان الشرق الأوسط دوماً محط اهتمام موسكو وسعت جاهدة على مدى العقدين الماضيين لتطوير الشراكات مع دول المنطقة فى مختلف المجالات، إلا إن العامين الماضيين شهدت تطورات هامة وغير مسبوقة فيما يتعلق بالتفاعلات الروسية الشرق أوسطية حيث تم قبول ثلاثة من الدول العربية، السعودية والامارات ومصر، أعضاء فى مجموعة بريكس، وشركاء حوار فى منظمة شنجهاى إلى جانب قطر، وهما من الأطر الدولية التى أسست لها وتقودها

موسكو. الأمر الذى يعكس إعادة تموضع روسيا باتجاه المنطقة، وتبنى منظور شامل للتعاون يتضمن العديد من الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، الأمر الذى يتيح آفاق رحبة للتعاون والشراكة بين الجانبين.

---

[1]Концепция внешней политики Российской Федерации (утверждена Президентом Российской Федерации В.В.Путиным 31 марта 2023 г.), https://www.mid.ru/ru/detail-material-page/1860586/

[2] TASS, December 06, 2017 (http://tass.com/defense/979455)

[3] Ruslan Mamedov, The Astana Shackles, Valdai Discussion Club, 13.02.2019, (http://valdaiclub.com/a/highlights/the-astana-shackles)

[4] Россия планирует создать в Судане пункт материально-технического обеспечения ВМФ, TASS, 11 ноября 2020, https://tass.ru/politika/9974007